

هل يمثل وباء كورونا "سبوتنك" صيني؟

ماركو ميلانوفج

فورين أفيرس 12-05-2020

<https://www.foreignaffairs.com/articles/united-states/2020-05-12/pandemic-chinas-sputnik-moment>

ترجمة: سامي كلاوي

عندما أطلق الاتحاد السوفيتي القمر "سبوتنك"، وهو أول قمر اصطناعي في العالم، في أكتوبر 1957، أدركت واشنطن أخيراً أن الاتحاد السوفيتي لم يكن مجرد خصم أيديولوجي هائل فحسب، بل كان أيضاً منافساً تكنولوجياً وعسكرياً. وبهذه الخطوة غير المتوقعة أميركياً، وضع سبوتنك لفترة وجيزة الاتحاد السوفياتي أمام الولايات المتحدة في مجال تكنولوجيا حاسم له تداعياته الهائلة على التنافس العسكري بين القوتين العظمتين. لم يغير سبوتنك الطريقة التي رأت بها الولايات المتحدة الاتحاد السوفيتي فحسب، بل أيضاً الطريقة التي رسمت بها أولوياتها. ورداً على الإنجاز السوفيتي، زادت الولايات المتحدة من استثماراتها في تكنولوجيا الفضاء ومن مساعيها في فهم الأيديولوجية الشيوعية ومن ثم تقويضها بشكل أفضل. وقامت الجامعات الأميركية بتوسيع برامجها باللغة الروسية. وفي نهاية المطاف، وبعد ذلك بثلاثة عقود تقريباً، وضمن إطار ما سُمي بمبادرة الدفاع الاستراتيجي، قامت الولايات المتحدة بتصنيع نسخة أميركية حديثة من قمر سبوتنك، ونُسب إلى تلك النسخة مساهمتها في تفكك الاتحاد السوفياتي ونهاية الشيوعية، وكان ذلك بمثابة خطوة "سبوتنك" في الاتجاه المعاكس.

واليوم، قد تكون جائحة COVID-19 التي انطلقت، على شكل غير متوقع، من الصين خطوة مشابهة لخطوة سبوتنك السوفيتية. فباستجابتها السريعة والفعالة للوباء، ورهان العالم الخارجي عليها في إنتاج المواد الطبية، والحاجة العالمية الواضحة لانتعاشها الاقتصادي، بلغت الصين سن الرشد في نظر النخبة الحزبية الأميركية ومعظم المراقبين في العالم. وبذلك سيكون انطباع الأميركيين وغيرهم من شعوب العالم عن الصين مختلفاً عما كان عليه قبل الجائحة.

لقد ساعدت ردود الفعل المتباينة للولايات المتحدة والصين على خطر الوباء في وضع النظامين السياسيين المتنافسين في مقارنة واضحة للعيان. فمع التنافس الفعلي للقوتين

العظمتين على النفوذ العالمي، سيمثل نجاح أي نظام مقارنة بالنظام الآخر مسألة على قدر كبير من الأهمية. وفي مقال سابق لهذه المجلة، وصفت النهجين الصيني والأمريكي تجاه السوق بالرأسمالية السياسية والليبرالية، على التوالي. وقد أظهر كل من النظامين نقاط قوة وضعف في المعضلة الراهنة.

إن أعظم رأسمال للحكومة الصينية في إدارة الأزمة تمثل بقوتها وقدرتها المركزية على السيطرة على مواردها الهائلة. فبسبب هذه الهيكلية الهرمية، تمكنت الصين من فرض سياسات شديدة القسوة وبسرعة غير عادية، وتحويل الموارد (بما في ذلك الموارد البشرية، كالأطباء والممرضات) إلى المناطق التي كانت في أمس الحاجة إليها. وبدون إجراءات كهذه، لم يكن بوسع الصين أن تحقق مثل هذه النتائج الرائعة. فشنغهاي، على سبيل المثال، المدينة التي يبلغ عدد سكانها 24 مليون شخص، لم يبلغ فيها المعدل اليومي لأعداد الوفيات بسبب الوباء أكثر من مئة شخص. أما أوهان نفسها، وبعد ثلاثة أشهر فقط من فرض الحجر الصحي عليها، أصبحت، على الأغلب، خالية من إصابات جديدة.

ولكن علينا إلا ننسى أن للنظام السياسي المركزي نقاط ضعف كما له نقاط قوة. فقد وصف الاقتصادي شو تشنغ يانغ النظام الصيني بأنه نظام استبدادي ولكنه يمنح الأقاليم صلاحيات بدرجات متفاوتة. فغالبا ما تكون سلطات الأقاليم أو المقاطعات على درجة كبيرة من السعة طالما أن تلك السلطات توظف في السعي لتحقيق الأهداف التي يحددها المركز. وتشمل أولويات الحكومة المركزية زيادة النمو الاقتصادي إلى أقصى حد ممكن، وجذب المستثمرين الأجانب، وفي بعض الأحيان محاولات الحد من التلوث. وتتساهل الحكومة المركزية في السماح للسلطات الإقليمية والمحلية بمتابعة تحقيق تلك الأهداف باستخدام الوسائل التي تراها مناسبة. وتكافئ السلطات المركزية الإدارات المحلية على حسن أدائها في تنفيذ سياسات المركز، وهذا ما يجعل الإدارات المحلية تخفي عن المركز إخفاقاتها في تحقيق الأهداف المرسومة.

وعليه، لم تكن الاستجابة المصيرية للسلطات المحلية في مقاطعة هوبي للحالات الأولى من COVID-19 استثناءً من هذه القاعدة، بل كانت تتماشى إلى حد بعيد مع اللامركزية الإقليمية للنظام الصيني. فقد أخفت سلطات مقاطعة هوبي عن الحكومة المركزية معلومات كبيرة ومهمة تتعلق بانتشار الوباء وفقدان السيطرة عليه خشية أن تُتهم

من قبل المركز بالافتقار الى المهنية والإخلاص في العمل. ولم يأت التدخل الفعال لبيكين إلا بعد أن أصبح الوباء ظاهرة واضحة للعيان.

أما النظام السياسي الأميركي فإنه تفاعل مع الفيروس بطريقة معاكسة تمامًا للطريقة الصينية. ففي البدء، قدمت السلطات المركزية (الحكومة الفيدرالية الأمريكية ووكالاتها) صورة مشوشة عن الوباء. وشهدت اللحظات الأولى من الوباء غيابا تاما للحكومة الفيدرالية، واستمر غيابها فترة ليست بالقصيرة. وبفضل الصلاحيات التي يمنحها المركز للحكومات المحلية، ساعدت تلك الحكومات في تعويض ضعف المركز. فعندما اختفت الحكومة الفيدرالية الأمريكية واستهلكتها المؤتمرات الصحفية التي لا معنى لها، تولت الولايات إدارة الأزمة. ومن خلال القيام بذلك، أظهرت حكومات الولايات قوة ومرونة الفيدرالية. وعلى عكس اللامركزية الإقليمية الصينية، لم تتردد تلك الحكومات في استخدام كافة الصلاحيات الممنوحة لها دستوريا في التعامل مع الوباء وان اختلف ذلك مع سياسة وتوجهات الحكومة الفيدرالية. فقد قامت الولايات باعتماد تدابير التباعد الاجتماعي، وأمرت بإغلاق الأماكن العامة، ودعمت أنظمة الرعاية الصحية، واشترت معدات حماية شخصية للأطباء والمرضات، وطورت أنظمة خاصة بها للاختبار ومتابعة المصابين. وتعارضت الكثير من هذه التدابير مع الخطط والبرامج التي أعلنت عنها الحكومة الفيدرالية.

ما زال من المبكر البت فيما إذا كان صمود الفيدرالية الأمريكية وحده قادر على التغلب على الوباء أم أن الأمر بحاجة الى تنسيق وتناغم في النهج والأولويات بين حكومات الولايات المختلفة. فخطورة هذا الوباء تكمن في سهولة اجتيازه للحدود الدولية، لذا فإنه من الممكن تفويض أفضل الجهود التي تبذلها دولة واحدة، كالولايات المتحدة، بسبب القرارات السيئة أو السلوك غير المسؤول في دول الجوار.

يراقب العالم اليوم باهتمام بالغ كيفية تعامل نظامين: الرأسمالية السياسية والليبرالية، أو السلطوية اللامركزية والفيدرالية مع أزمة واحدة. سيتجاهل كثير من الناس أصل الأزمة ويقارنون الرد الصيني بشكل إيجابي بالرد الأمريكي. فرغم كل شيء، تعود الصين إلى الحياة الطبيعية التي تثير الحسد والشوق. فقد عادت الشركات إلى العمل، وفتحت متاجر البيع بالتجزئة، وعاد رعاة ستاريكس المرحون لاحتساء القهوة.

حتى اللحظة، الرأسمالية السياسية المتمثلة بالصين تنتصر. إلا أن هذا الانتصار يمكن أن يكون انتصارا عابرا كانتصار مبادرة "سبوتنيك" السوفيتية اذا ما قررت الليبرالية

الأميركية الاستفادة من مزاياها المهمة، مثل مرونة صنع القرار ومساءلة الحكومات المحلية والشفافية. وتتعكس فائدة الميزة الأخيرة (الشفافية) في حقيقة أن الأميركيين يستطيعون الوصول الى المعلومات الكاملة والدقيقة عن أعداد الإصابات والوفيات الناجمة عن الوباء من خلال الكثير من المصادر، في حين لا يستطيع الصينيون الوقوف على ما يسببه لهم الوباء إلا من خلال مصدر حكومي واحد وهو مصدر قابل للتسييس. وهذا ما يعود بدوره الى طبيعة الاختلاف بين النظامين. هذا الاختلاف الذي أظهره الوباء بشكل جلي الآن.